وزراء السلاجقة في شعر عصرهم

عندما دخل الكندري [1] بغداد مدحه أبو الجوائز الواسطي وقال انه كان لطغرلبك ما كان الحواريون لمحمد [2] ، ومدحه صردر [3] فكان مما قال :

عمت فواضله البرية فالتقى شكر الغني ودعوة المسكين

ساس الأمور فليس تخلى رغبة من رهبة وبسالة من لين

وكانت صلة الباخرزي بالكندري وثيقة ، وقد أثنى الشاعر على معارف الوزير ونص على علمه باللغات (بما فيها التركية) والفقه والفلسفة [4] . وكان المنتظر أن يرثيه ويبكي نهايته المؤلمة التي اذاقه إياها نظام الملك وألب ارسلان ، ولكنه لم يحقق هذا الظن ؛ فقد كانت قصيدته هزيلة وأبياتها سخيفة تنبو عن الذوق اذ خاطب السلطان بـ :

وعمك أدناه وأغنى محله وبوأه من ملكه كنفا رحبا

قضى كل مولى منكما حق عبده فخوله الدنيا وخولته العقبى [5]

لم يستطع شعر العصر السلجوقي أن يفي بعض مكانة الوزير ، وأن يحفظ لنا ما كان له من خطر وما كان عليه من عصامية .

(١) أبو نصر عبيد الملك منصور بن محمد توفي عام ٤٠٦ ينظر عنه البنداري ص ٢٦ ، ابن خلكان ٢ : ٤٨٨ ـ ٤٩٢ ، وعنه ومن أهم الأعلام التي يرد ذكرها في هذه المقالة الجزء الأول من كتاب « الشعر العربي في العراق وبلاء العجم في العصر السلجوقي » ، بغداد ١٩٤٨ .

(٢) النصرة ص ١٢٠ .

(٣) ديوان صردر ٥٣ ـ ٥٦ .

(٤) الملتقط ص ١١ .

(٥) ابن خلكان ٢ : ٤٩١ .

وكان نظام الملك أعظم وزير سلجوقي ، وقد ذكر الطغرائي أصله الفارسي ، ووجهه المنير ومدح قلمه وسيفه وجيوشه بين الفرات وجيحان وحروبه مع البيزنطيين فقال :

رمى بنواصيها الفرات فأقبلت ... مغيبة الأعطاف تلع المناكب
وخاض بها جيحان يلطم موجه ... ملاطمة الخصم الألد المشاغب
خميس أقاصي الشرق ترزم تحته ... وترتج منه أخريات المغارب

***

يلفهم بالرعب قبل طرادهم ... ويهزمهم بالكتب قبل الكتائب[1]

وقال :

وما راع أهل الشام إلا اطلاعها ... رقاق الظبى والمقربات السلاهيب

***

ولما رأتها الروم أيقن أنها ... سحاب لها ودق من الدم مسكوب
وما طلعت إلا وفي كل زعة ... بها منبر الدين الحنيفي منصوب
وكم لك فيهم وقعة بعد وقعة ... جمعت بها الأهواء وهي أساليب
صدقتهم حد الطعان فأدبروا ... وبرد المنى بين الجوانح مكروب
ولما أتوا مستسلمين معاذراً ... غدوا وهم أهل لديك وترحيب
رأوك ، فلا في ساعة البأس سطوة ... عليهم ولا في صفحة العفو تقطيب[2]

وأطرى عزمه ودهاءه :

بعزم إذا ما النساب في مدلهمة ... من الحرب لم يرتد إلا على فصل
خفي مدب الكيد يكتم سخطه ... رضاه ويسقي السم في مجة النحل

(١) ديوان الطغرائي ص ١٤ . وقد وردت للقارب على : غوارب .
(٢) ديوان الطغرائي ١٢ — ١٨ .

ضروم على الهمّ البعيد جنانه وقورٌ إذا القوم استطيروا من الجهل

* * *

به اعتدل الملك الذي مال ركنُه ومادت غصون العيش موقرة الحمل[1]

وعندما خلع السلطان ملكشاه على وزيره ، وصف الطغرائي هذه الخلعة :

حباك بما تحبو به كلّ زائر غدا يبتغي اخلاف نائلك الجزل

وما ذاك كي تزداد عزّاً وإنما أبان به عن رأيك المحكم الجدل

بمرقومةٍ تُصبي العقول كأنما تخايلت منها بين قولك والفعل

رفلت بها في مثل اخلاقك التي بها عاد شعب المجد ملتئم الشمل

ومستطعم فضل العنان كأنما يلاعب عطفيه سحوق من النخل

إذا هزّه جنّ الرياح توقرت بأطرافه أعباء حلمك والفضل

* * *

وأبيض طاغي الحد يرعد متنه مخافة عزم منك أمضى من النصل

عليم بأسرار المنون كأنما على مضربيه أنزلت آية القتل

تفيض نفوس الصيد دون غراره وتطفح عن متنيه في مدرج النمل[2]

والطغرائي اذ يصف نظام الملك ويتحدث عن اخلاقه وحروبه وخلعه ، انما يتحدث عن رجل رآه عن كثب ، ولم يبتعد ـ حتى في مبالغاته ـ عن الحقيقة التأريخية .

ومـــدح نظام الملك ـ غير الطغرائي ـ شعراء كثيرون منهم : الباخرزي[3] وابن

(١) ديوان الطغرائي ص ١٠ .

(٢) نفسه ص ١٣ .

(٣) الأحسن ١٠٨ ـــ ١٠٩ .

الهبّارية[1] والأبيوردي [2] وشبل الدولة [3] وابن زكرويه الأنباري [4] والبندنيجي [5] ومحمد بن أحمد الأصبهاني [6] ومحمد المختار الزوزني [7] وابن الموصلايا [8] .

ولا نكاد نعرف من مراثيه غير قول « ختنه » شبل الدولة مقاتل :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... نفيسة صاغها الرحمن من شرف

عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فردّها غيرةً منه إلى الصدف [9]

ومن الناس من فرح لموت الوزير فردّ عليهم سديد الملك المفضل بن عبد الرزاق (العارض في أيام ملكشاه) :

قتل الوزير فكلهم جذلان ... لا تشمتوا فوراءه الحدثان

الملك بعد أبي عليّ لعبةٌ ... يلهو بها النسوان والصبيان[10]

وهذا ما حدث ، فقد أستولت تركان خاتون ـ زوجة السلطان ملكشاه ـ وأخذت البيعة لابنها محمود (وكان عمره أربع سنين وشهوراً) [11] .

(١) مرآة الزمان لسبط بن الجوزي .

(٢) ابن الاثير س ٤٧٢ = ديوان الأبيوردي ١٢٩ — ١٤٠ ، ٣٧٢ وانظر ص ٢٨ — ٣٠ ٣٤١ — ٣٤٧ .

(٣) الخريدة ، القطعة الأولى ، و ٨٠ أ ، ابن خلكان ٢ : ٥٦٩

(٤) خريدة العراق . القطعة الأولى : ابن زكرويه .

(٥) خريدة العراق « « البندنيجي .

(٦) الخريدة ص ٢١٠ ـ ، المحمدون ص ٤١ .

(٧) الخريدة ج ١ ص ١١ .

(٨) الخريدة ج ١ ص ١٢٨ — ١٣٢ .

(٩) ابن خلكان ١ : ٣٤٢ .

(١٠) الخريدة ج ١ ، قم . ايران ٤٩ — ٥٠ (= المطبوع ص ٩٤) .

(١١) نيطر النصرة و ٧٢ أ ، ابن الأثير ١٠ : ١٢٥ ـ سن ٤٨٥ (= ٩ : ١٦٤ من ط . الاستانة) .

ولا بد أن نعرض لهذه اللغة القريبة من الفصيحة بالبحث ، والتي نحن سائرون اليها في مستقبلنا القريب أو البعيد لنحدد صفاتها وميزاتها التي تتميز بها ثم نخلص من ذلك الى البحث التأريخي لنقرر مرحلة من مراحل تاريخ العربية الطويل ، فالتاريخ اللغوي من الأمور الغامضة ، ذلك أن الباحث لا يهتدي الى المراحل التطورية في هذا التاريخ الطويل وربما انقطعت عنه حلقات طويلة وضاع اثرها وبهذا فليس من الممكن رسم تاريخ محكم الحلقات لهذه اللغة ، فلقد ضاع من اصولها شيء كثير ، ومن اجل هـــذا فهي بدع في اللغات الحية المتطورة في قوتها واصالتها وحيويتها وقابليتها في مسايرة الزمن وتطوره . ولقد اثر عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : (ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقلّه ، ولو جاءكم وافراً لانتهى اليكم علم وشعر كثير) [1] .

وأنا افترض أن تكون هذه اللغة القريبة من الفصيحة ، والتي تكاد تخلو من أي لفظ دخيل عامي ، متخلفة من قيود الاعراب فالكلمات فيها ساكنة الأواخر ، ولعل هـــذه المرحلة مهمة في العود الى الفصيح المعرب كما هو الحال في اللغة المكتوبة والتي ورثناها في التراث العربي ، كما هو الحال في لغة القرآن الكريم .

ولا بد أن نعرض للاعراب عرضاً تاريخياً فنقول : لقد احتفظت اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الاعراب ، وهي من صفات العربية الموغلة في القدم في حين أن سائر اللغات السامية ـ عدا الاكدية ـ قد فقد الاعراب منذ اقدم العصور ، وقد دل على هذا الاعراب بقايا نجـــدها في العبرية والحبشية [2] . اما في اللغة الاكدية فقد عرفت الحركات الثلاث في البابلية في النصوص القديمة ، ثم تطورت هذه الحركات الثلاث وانتهت الى حركتين هما الضمة للرفع والفتحة للنصب والجر ، ولم تلبث هذه المرحلة طويلاً حتى تطورت الى مرحلة الحركة

(١) ابن الانباري ، نزهة الالباء ص ٣٢ .

(٢) Borgstraesser ، التطور النحوي ٧٠ .